الهوية الوطنية في التاريخ بين الاندماجيين والإصلاحيين

فرحات عباس الشاب و عبد الحميد بن باديس نموذجان

د: زازوي موفق

جامعة تلمسان

نسعى في هذه المداخلة إلى محاولة الوقوف على نوع من الصراع الذي دار حول الهوية الوطنية ،و التعرف على أهم الخطابات القوية التي سادت تلك الفترة و خاصة تلك التي جرت بين الإدماجيين و الإصلاحيين ،ومعرفة كذلك مرجعيتها و أبعادها للكشف عما هو ثابت أصيل و ما هو متغير دخيل. و على هدا الأساس يمكننا التساؤل.

ما المقصود بالهوية ؟ -و ما طبيعة الخطابين الإدماجي و الإصلاحي ما مفهومهما للهوية ؟

للإجابة على هده التساؤلات نقترح الخطة التالية:

1/-تحديد مفهوم الهوية من خلال الوقوف على بعض خصائصها .

2/- قياس مفهومها الهوية و خصائصها على الخطاب الإدماجي ثم الإصلاحي لمعرفة أقرب إليها.و أيهما حافظ على خصائص.

1/-في مفهوم الهوية و خصائصها

أ/- في اللغة:

إذا نظرنا إلى مصطلح الهوية في العربية هي مصطلح صناعي مركب من ضمير الغائب "هو" و هو عبارة عن رابطة و معناه الوجود ،و سمي بالرابطة لأنه يربط بين معنيين ،ولما كانت لفظة "هو" ليست اسما و لا كلمة في اللغة العربية فانه تعذر إيجاد مصدرا منها.

-و كلمة هوية ليست في الأصل عربية و لكنها وضعت للضرورة فقد اضطر المترجمون إلى اشتقاق هدا الاسم من حرف الرباط و الذي و جد أساسا ليربط بين المحمول و الموضوع،كقولنا إن سقراط هو إنسان أو هو حيوان ناطق .

و لما وجدوا هدا الحرف يقوم بهده الوظيفة فقد اشتقوا منه هدا الاسم على ما اعتاد عليه العرب من اشتقاق اسم من اسم لأن الحرف لا يمكن أن يكون بأي حال من الأحوال مصدر اشتقاق.و بهذا أصبح هدا الاسم يدل على ما يدل عليه ذات الشيء1.

أما ادا رجعنا إلى اللغة الفرنسية فان كلمة identité مشتقة بدورها من كلمة idem والتي تعني المثل أو الشيء نفسه.

ب/-اصطلاحا:

في الفلسفة:

هدا المفهوم يختلف باختلاف الحقب التاريخية و باختلاف المقاربات التي تناولته.

في الفلسفة يعبر عنه بمبدأ الفكر و أساسه و يعني تطابق الفكر مع ذاته و هو ما يعرف بمبدأ الهوية أو الذاتية و يعبر عنه بالصيغة :أ = أ .فالشيء هو ذاته و لا يمكن أن يصبح شيئا آخر رغم التحول و التغير الذي يطرأ عليه2.

و عندما نعود إلى تاريخ الفلسفة نجد نوعين من الخطابات أحدهما يقول بالثبات و الآخر يقول بالتغير.

يمثل الأول برمينيدس الذي كان يرى أن الوجود قديم ثابت كامل فأنكر الكثرة و التغير و اعتبرهما وهما و ظلما3.

أما الثاني يمثله هيرقليطس الذي كان يقول أن الأشياء في تغير دائم و قد عبر عن هدا في شكل صورتين

أ-الأولى جريان الماء عندما قال :أنت لا تنزل في النهر الواحد مرتين فلأن مياهه جديدة تجري من حولك.

ب-أما الصورة الثانية:هي أن اضطرام النار أسرع حركة و أدل على التغير4.ولهدا جاء التعريف الفلسفي جامعا بين الثبات و التغير.فالهوية هي ما يبقى هو نفسه و كما هو بالرغم من اختلاف طرق إدراكه

في علم النفس:الهوية كأنا :'يعرف على أنه بناء نفسي يتكون من صفتين أساسيتين هما الشعور و اللاشعور...انه فاعل داخل مجموعة من الوظائف منها الواقع،النزوات،الأهواء،الدفاع،العلاقات،التكيف.'5

إن التعريف الاصطلاحي في علم النفس يجعل من الأنا عملية بناء و هده الأخيرة لا تتم الا عبر مراحل و هدا البناء أساسه فاعلية هدا الأنا من خلال الأدوار التي يقوم بها كعمليات التكيف و الدفاع .

في علم الاجتماع:

تعبر الهوية عن الانتماء بكل أشكاله، كالانتماء إلى جماعة ' أو إلى منظمة أو إلى طبقة اجتماعية 'أو إلى دولة أو أمة.

و الانتماء يكون كذلك إلى العرق أو إلى الدين و إلى القبيلة...

و حين الكلام عن علاقة الأنا النفسي بالأنا الاجتماعي،هناك من يذهب إلى تأكيد أسبقية الأنا الاجتماعي عن النفسي ،لأن الأنا النفسي هو في أصله أنا اجتماعي.و هذا ما أشار إليه المفكر ماكيلي Alex mucchielli في كتابه الهوية حين أكد على أن هذا الأمر يعود إلى إجماع المفكرين و العلماء في السوسيولوجيا و الأنثروبولوجيا و المؤرخين بأن هناك "أنا اجتماعية أولية مشتركة بين جميع الأفراد الذين ينتمون الى جماعة واحدة متماسكة"6 و اذا كان هذا الأنا اجتماعي في أصله.فان هذا الوضع يجعل من الأنا يشعر بالانتماء الذي يميزه عن الآخر المختلف.لذلك إذا كان الناس يحتاجون في تحديد هويتهم إلى الآخرين فهل يمكن أن يكون هذا الآخر عدوا؟

حسب هنتغتون :إن التجربة التاريخية و التحليل السوسيولوجي يبين أن غياب العنصر الخارجي (الآخر) يضعف الوحدة و يولد الانقسامات في المجتمع و لذلك فان تحديد الهوية قد يجعل الفرد محتاجا إلى الآخرين،حتى و لو كان هذا الآخر بعيدا ،فالمهم أنه يشكل حاجزا نفسيا بالنسبة إلينا حتى نتمكن من مقارنة أنفسنا،فالمقارنة تخلق المنافسة و الحذر7 و لما يكون هذا الآخر هو العدو الذي يهددنا فإننا نحذره و نحتاط منه و يكون العنصر الأخطر الذي يشكل هويتنا و يجعلها قادرة على الصمود أمام الهويات الفرعية الأخرى.

إن تواجد الاستعمار إبان الحركة الوطنية اضطرها إلى الوحدة لأجل افتكاك الاستقلال رغم ما كان بينها من اختلافات.

يؤكد هذا الموقف كلاستير في كتابه أصل العنف و الدولة ،فيبين أن الحرب على الآخر هي أداة الحفاظ على الهوية.هذا يعني أن أية جماعة أو شعب لا يشعر بوحدته و تميزه إلا عندما يتم تحديد الآخر على أنه العدو الذي يهدده و يريد اقتلاعه من الوجود8 .

-1/- قياس الخطابين الإدماجي و الإصلاحي على مفهوم الهوية

1-1 الخطاب الإدماجي :

ان النظرة المتفحصة للمجتمع الجزائري غداة الاستعمار تبرز لنا و جود عاملان ديناميكيان في المجتمع الجزائري يمثلهما المثقفون دوي التكوين الفرنسي في مقابل المثقفين المعربين أصحاب التوجه الإصلاحي ، و يبقى الشعب الممثل للغالبية العظمى و الذي كان يعيش حالة من الجهل و الأمية بين نزعتين متصارعتين (التحديثية و المحافظة)

إن الخطاب الإدماجي يمثله الدكتور بن جلول و الصيدلاني فرحت عباس الشاب.يمثل غالبية هذا الحزب الطبقة البرجوازية الصغيرة و هم أصحاب الشهادات و المثقفون ثقافة فرنسية .

يدعو هذا التيار إلى إدماج الشعب الجزائري في المجتمع الفرنسي بهدف تطويره و تحضيره.و يعبر هذا التيار عن ولائه للثقافة الفرنسية.

حينما نحاول إخضاع الخطاب الإدماجي للمقايسة.فان أول مفهوم يواجهنا للهوية كونها تمثل الاختلاف عن الآخر .(أنا في مقابل الآخر)، لكن عندما نعود إلى خطاب فرحات عباس الشاب الذي نجده يطالب "بإحداث إصلاحات اجتماعية في إطار النظام الاستعماري تحت سيادة الحكومة الفرنسية، بحيث تسمح تلك الإصلاحات بالحصول على كامل حقوق العضوية في المجتمع الفرنسي كما هو الحال بالنسبة إلى المواطنين المقيمين في الجزائر"9 يرتفع الاختلاف بين الأنا و الآخر ليتحول إلى تماثل فتعدم بذلك الهوية.

أ/- الآخر بالنسبة للهوية قد يمثل التهديد و الخطر و تواجده يعزز اللحمة الوطنية.

هذا ما يعبر عنه هنتغتون عندما يرى أن الهوية تزداد وحدة و تماسكا حينما يمثل الآخر خطرا و تهديدا لها.يقوا نور الدين أفاية في كتابه الغرب المتخيل:أن الآخر بوصفه اختلافا دينيا أو ثقافيا يشكل أفقا للذات ،و أحيانا جزءا من النضرة إلى الذات سواء تقدم باعتباره شريكا مسالما أو في هيئة كيان غاز أو في صفة محتل متغطرس أو مفاوض مهادن أو تقدم إلى مساحة الوعي كاختلاف جسدي أو ثقافي 10

إن دعوة فرحات عباس إلى الإدماج و المساواة دفعته إلى تغييب الهوية العربية الفرنسية خاصة عندما قال: "ان الجزائر فرنسية و نحن فرنسيون "11.يكون بهذه الدعوة إلى الإدماج قد غيب الأنا و أكد على حضور الآخر و هذا يخل بالمبدأ الثاني الذي تقوم عليه الهوية.

ب/-من مميزات الهوية الشعور بالانتماء إلى الدين ،الذي يمثل مرجعية المرجعيات ،فعندما يغيب عنصر الدين فذلك معناه الدعوة إلى الملائكية هذا العامل ينتفي في خطاب فرحات عباس في سبيل المساواة بين الجزائريين و الفرنسيين .فعندما يقول :" ينبغي أن لا تكون هذه الدولة المنتظرة دومينيونا يكون للأوروبيين عليه حق الاحتكار المطلق ،بل ينبغي أن تكون هذه الدولة جمهورية ديمقراطية اجتماعية قائمة على أساس اتحاد أخوي بين جميع الجزائريين مهما كانت جنسيتهم و ديانتهم و على أساس إعطاء كل ذي حق حقه من السيادة."12

ج/-من مميزاتها كذلك الشعور بالانتماء إلى دولة أو إلى أمة أو إلى ثقافة أصيلة أو إلى وطن لكن مثل هذه المفاهيم تختفي في خطاب فرحات عباس .لقد ارتكب خطئا فادحا عندما قال : "الجزائر كوطن مجرد أسطورة لأنني لم أعثر عليها لقد سألت التاريخ و الأموات و الأحياء وزرت المقابر لكن لا أحد حدثني عنها.13 إن استنطاق هذه المقولة تجعلنا نتساءل :أين الجزائر الأمة و الوطن و الدولة.و الجواب أن كل هذا خرافة عند فرحات عباس.إن مثل هذا التصور يعكس حالة من الاغتراب الثقافي و الهوياتي لدى النخبة المثقفة ثقافة فرنسية.ثم إن هذا الخطاب يخفي وراءه أن الجزائر لم تكن أمة و لم تنعم أبدا بالسيادة و إنما كانت مسرحا للنهب الأجنبي الدخيل.

انطلاقا من هذه الأفكار يمكن القول أن خطاب فرحات عباس يصب في فرضية أن العرب المسلمين كانوا مجرد دخلاء مستعمرين لا فاتحين فهم لا يختلفون عن باقي الوافدين إلى أرض الجزائر عبر التاريخ.بذلك يكون قد روج لمقولة أن العرب مجرد غازين للسكان الأصليين –البربر-

يظهر لنا من خطاب فرحات عباس الشاب أن هاجسه كان في المطالبة بمساواة الجزائريين بالفرنسيين في الحقوق ،أي امتلاك حق المواطنة و لا تهمه هوية الجزائر و لا عروبتها و لا إسلاميتها،فيكون بذلك قد وقع في أحضان الأيديولوجية الفرنسية الداعية إلى تغريب المجتمع الجزائري.

2/1في الخطاب الإصلاحي:

يتأسس الخطاب الإصلاحي بزعامة عبد الحميد بن باديس على العقيدة السلفية و المذهب المالكي.

أ/- إذا رجعنا إلى المقوم الأول التي تقوم عليه الهوية و المتمثل في مفهوم الاختلاف .

إن الهوية لا يمكن أن تؤدي معناها الحقيقي على أكمل وجه إلا داخل مجموعة من العلاقات البنائية و منها بنية التعارض أو التقابل ،و من المفاهيم التي تقابل الهوية ،الغيرية أو الاختلاف.

إن مفهوم الغيرية altérité بالفرنسية مشتقة من اللاتنية والتي تعني الآخر الذي يعرف في الاصطلاح "على أنه خاصية ما هو غير،أي ما يقابل الأنا ،أما من الناحية الفلسفية فانه يعرف على أنه تعبير عن التنوع و الاختلاف،و كل ما هو غريب عن الذات .14فالهوية لا تتشكل إلا عندما يتم إدراكها للآخر المختلف. لقد جاء الخطاب الإصلاحي مؤكدا على ثنائية الأنا و الآخر، فهو يعمل على تثبيت وجودية الأنا و يقر بقبول اختلاف الآخر .هذه الثنائية لا تتجسد إلا بتحقق الأنا الذي أعدمه الخطاب الإدماجي . ليطرح السؤال :كيف تم إثباته في الخطاب الإصلاحي؟

لقد تم أولا بالرد على فرحات عباس عندما قال الشيخ بن باديس :"إننا فتشنا في صحف التاريخ و فتشنا في في الحالة الحاضرة فوجدنا الأمة الجزائرية متكونة موجودة ،كما تكونت و وجدت كل أمم الدنيا." 15 وثانيا عندما رفع شعار الإسلام ديني و العربية لغتي و الجزائر وطني تعبير عن أمة متميزة مختلفة عن الأمة الفرنسية.

هذه الأمة التي كان يقصد بها الدولة و الوطن و الشعب يستحيل إدماجها في فرنسا ."لأن هذه الأمة الإسلامية ليست هي فرنسا و لا يمكن أن تكون فرنسا و لا تريد أن تصير فرنسا و لا تستطيع أن تصير فرنسا و لو أرادت، بل هي أمة بعيدة عن فرنسا كل البعد في لغتها و في أخلاقها و في عنصرها و في دينها ،لا تريد أن تندمج." 16هكذا كان إثبات الأنا لان بدونه لا يتحقق الآخر و لا يمكن تصوره.أو خلق صورة نمطية له.

ب/-الإخلال بثنائية الأنا و الآخر يعدم الأنا "الهوية"

إن الآخر في تصور الخطاب الإصلاحي هو المختلف و المخلف ،و هو العدو الذي ينبغي مقاومته .و المقاومة في الفكر الإصلاحي تقوم على جبهتين :

1- جبهة داخلية "مقاومة داخلية "تتمثل في محاربة البدع و الخرافات التي ألصقت بالدين و الرجوع بالدين إلى حالته الخالصة الصحيحة و مقاومة أهل الإدماج.
2- مقاومة خارجية تتمثل في محاربة الاستعمار الفرنسي عن طريق العمل على نشر العربية و العمل على تعميمها لتأكيد طابعها الوطني. لان الأمة التي تصطنع لغة غيرها من الأمم تفقد ذاتيتها و تذوب في كيان الأمة التي اقتبست لغتها.

ب/- إقصاء الشعور بالانتماء إلى الدين و إلى الأمة و إلى التاريخ هو إعدام للأمة نهائيا فكان على الجمعية إثبات الانتماء .

من مبادرات جمعية العلماء المسلمين في هذا الإطار تقديرها لنفسها على أنها حركة دينية ثقافية و ليست سياسية ،و بذلك تكون قد مهدت الطريق للدفاع عن انتمائها إلى الهوية العربية الإسلامية.

إن إستراتيجية الجمعية مع النظام الاستعماري يبدو فيها نوع من الذكاء السياسي ،فقد رفضت الإدماج من جهة عندما ميزت بين الجنسية القومية للإبقاء على الهوية الثقافية بعيدا عن الهوية السياسية، و هذا نوع من القبول بالنظام السياسي الفرنسي و الدخول تحت وصايته لاكتساب المواطنة و الحفاظ على الأحوال الشخصية الإسلامية.17

يظهر أن العملية تكتيكية لان الحفاظ على الهوية الثقافية و الحفاظ على كيان المجتمع أولى من اندماجه مع الأمة الفرنسية ،فتصبح الهوية الثقافية دافعا للمطالبة بالهوية السياسية.

ذهب المؤرخ الايطالي فيكو: أن أية أمة عندما تبتلى بالاستعمار تكون أمام حلول ثلاثة و هي الذوبان أو الانسلاخ أو الاستقلال .و حسب هذا المؤرخ يتحدد مصير الشعوب حسب مدى قدرتها على اختيار الحل الذي يتجاوب و إمكانياتها و حيويتها و أصالتها.18 فالأمة التي اختارت طريق الذوبان حكمت على نفسها بالفناء ،أما التي اختارت الحل الثاني "الانسلاخ"و هو الحل من الخارج ،تتقبله الأمة التي لها القابلية للاستعمار .أما التي اختارت الاستقلال فإنها الأمة التي ترفض الدخيل عنها .و هذا ما لجأت إليه جمعية العلماء المسلمين.

خلاصة

ما نخلص اليه يكمن في وجود مرجعيتين مختلفتين أحداهما تعدم الهوية في سبيل الإدماج .و أخرى تعمل على إثباتها بإثبات الخصوصية ذات الامتداد العربي الإسلامي من خلال الثلاثية التي أطلقها ابن باديس ممثلة في :الدين و اللغة و الوطن.و هذا يعني تقريب الفرد الجزائري من بيئته الأصلية الإسلامية خلاف الثقافة اللائكية التي كان يروج لها الخطاب الإدماجي .

هذه الثنائية التي تجدد وجودها بعد الاستقلال في شكل صراع بين النخبة المثقفة ثقافة فرنسية و النخبة ذات الثقافة العربية الإسلامية، هذا ما يؤكده الباحث الجزائري ناصر جابي في كتابه :الجزائر الدولة و النخب .

الهوامش:

1/- جيرار جهامي،موسوعة مصطلحات الفلسفة اليونانية،مكتبة النهظة المصرية،ط 5،القاهرة 1966،ص17.

2/- جميل صليبا ،المعجم الفلسفي الجزء الأول دار الكتاب اللبناني، بيروت 1982،ص 235.

3/- يوسف كرم،تاريخ الفلسفة اليونانية ، مكتبة النهظة المصرية ،ط 5 القاهرة 1966 ص29.

4/-يوسف كرم ،المرجع نفسه،ص 17.

5/- الزواوي بغورة،الخطاب الفكري في الجزائر بين النقد و التأسيس،دار القصبة للنشر.2003،ص122.

6/-alex mucchielli,l'edentité ,puf 4eme edition,paris 1986,p87.

7/- صامويل هنتغتون،أمريكا الأنا و الآخر،من نحن ؟الجدل الكبير في أمريكا،ص 47.

8/-

9/- سليمان الرياشي و آخرون،الأزمة الجزائرية،الخلفيات السياسية و الاجتماعية و الاقتصادية و الثقافية،مركز دراسات الوحدة العربية،ط2،بيروت ، 1999، ص 21.

10/- محمد نور الدين أفاية ،الغرب و المتخيل،صورة الآخر في الفكر العربي الاسلامي الوسيط،المركز الثقافي العربي ط1،الار البيضاء2000،ص51.

11/- فرحات عباس،الشاب الجزائري ،ترجمة أحمد منور،وزارة الثقافة (الجزائر عاصمة الثقافة الجزائرية)2007،ص99.

12/- مجموعة من الباحثين،الاديولوجيات السياسية للحركة الوطنية من خلال ثلاثة وثائق جزائرية (1926،1953)،ديوان المطبوعات الجامعية،بن عكنون،الجزائر،ص51.

13/- فرحات عباس،مقال بعنوان:على هامش الوطنية،أنا فرنسا

14/-jacqueline russ,clotiled badal lequil,dictionnaire de philosophie,bordas 2004,p36.

15/-عبد الحميد بن باديس، الشهاب،الجلد الثاني عشر،دار المغرب الاسلامي ،ط1، بيروت 2001،ص 47.

16/-عبد الحميد بن باديس،المرجع نفسه،ص ص 47 48.

17/-l'houari addi,l'impasse du populise,l'algerie collectivité politique et état en construction,enal,alger 1990,p49.

18/- ناصر الدين سعيدوني ،الجزائر منطلقات و آفاق،مقاربات للواقع الجزائري من خلال قضايا و مفاهيم تاريخية،عالم المعرفة،ط2،الجزائر،ص 278.